

النملة والجنـدب

للـكاتب الإنـجـليـزي: سَمَرَسِتْ مَوْمٌ

عندما كنت فتىً صغيراً كان عليّ أن أحفظ - عن ظهر قلب - بعض أساطير «لافونتين» الخيالية تلك التي تحمل في طياتها مغزى تعليمياً معيناً يجمع بين التثقيف والإمتاع... كل درس منها كان يفسر لي بعناية فأجد في الأسطورة مرتعاً للأحلام ومنبعاً للوعي والإلهام. ومن بين تلك كانت حكاية «النملة والجنـدب» والتي ينصب مغزاها في بحيرة لفت انتباه الناشئة إلى أهمية الجد والعمل وسلبيات الاستهتار والطيش والتهور.

في هذه الحكاية المثيرة للإعجاب - وأستميح القارئ عذراً في إيراد مجملها كونها معروفة لدى الجميع تقريباً - تعمل النملة بجد واجتهاد طيلة فصل الصيف... جامعة قوت شتائها فيما يظل الجنـدب متأرجحاً على حد إحدى النباتات... شادياً بأعذب الألحان... غير عابئ - لسوء الحظ - بما ينتظره من ألم الجوع في مستقبل زمانه... ودُكاء تسكب عليه من صبايات عسجدها جداول دفاء وألق وحبور.

ويجيء الشتاء فتسعد النملة بما قدمت لغد، أما مستودع الجنـدب فخالي الوفاض تعوي الريح في طياته وتصفر في جنباته!

ويهرع المسكين إلى النملة يستجديها ما يقيم به أوده فتجيبه:

- وماذا كنت طوال الصيف تفعل؟

فيجيبها في براءة: - كنت أغني ليل نهار!

فترد عليه في حنق: - اذهب إذاً فارقص! -

وكنت لا أمر بنملة - منذ أن سمعت بتلك الحكاية - دون أن أسحقها بقدمي لا لميل إلى المشاكسة والشر كامن، وإنما لقصور إدراك الطفل في ذاتي - أن ذاك - عن استيعاب المعنى الخفي المستتر خلف السطور بمعزل عن وليد بصيرتي. لقد اكتشفت لاحقاً أن طابع الإنسانية يغلب على تلك الحكاية، وأنها رمز للتعقل والحكم الصائب على الأمور قاطبة. لم أستطع إيقاف انسكاب جزئيات ذلك في تيار فكري حينما لمحت منذ بضعة أيام صديقي «جورج رمزي» يتناول غداءه وحيداً في أحد المطاعم. لم أر في حياتي ملامح كئيبة متجهممة كصفحة وجهه آنذاك... محدقاً في الفضاء... في أعماق اللاشيء كان كما لو أن متاعب الدنيا طرأً كانت تجثم على عاتقه فينوء بثقلها منكبها... وتنادر حزني وأسفي على ما كان يحتمل في ذاته من هموم أدركت أن مصدرها كان لاشك أخاه سيئ الحظ «توم».

دنوت منه فأرحت على ظهره راحة يدي:

- كيف حالك؟ سألته.

لست في أزهى حالات روحي المعنوية! أجب.

أهو «توم» ثانية!

وما أجب، ترك العنان لتهيدة حرى... كيما تفارق صدره الضيق حرجاً كأنما هو يصعد في السماء! على أنه قال بعد لأي:

أجل.. هو «توم» ثانية!

لماذا لا تنفض منه يديك. لقد تأكدت بما لا يدع مجالاً للشك أنه حالة ميؤوس منها فماذا تنتظر؟ ما تركت من أجله شيئاً ما فعلته!

ووصلت إلى قناعة مؤداها أنه لا بد أن يكون في كل عائلة شخص تافه... ضال عن جادة البقية، وأن «توم» كان دون ريب عالة وعلة عائلة «الرمزي». تلك الأسرة الشريفة التي نما «توم» بين ظهرانيها فما شك أحد بأنه سينشأ في بوتقة الاحترام ذاتها فيمارس عملاً شريفاً وذاك ما كان - بادئ ذي بدء -.

استهل حياته كأحسن ما يكون الاستهلال ودخل مجال التجارة ثم تزوج فرزق بابنين، إلا أنه قرر فجأة أنه لم يكن يصلح للزواج! أراد أن يتمتع بمباهج الحياة أن يتحلل مما كان يقيد حركته من مسؤوليات جسام - كما صورها له خياله - ولم يستمع لناصح بل ركب رأسه وأسرج جواد هواه وترك له العنان... ترك زوجته ووظيفته. وكان لديه حفنة من مال أنفقه متنقلاً بين بعض العواصم الأوربية على مدار عامين، وكانت الأقاويل الفاضحة تطرق أسماع عائلته فينزؤون جرائها خزيًا وألمًا والصدمات الصاعقة تترى فتزعزع كيانهم فلا يملكون لها رداً. وكانوا يتساءلون: هو الآن يرتع في ظلالٍ وارفات من السعادة ولكن ما عساه يفعل حينما ينضب ما لديه من مال؟ على أنهم علموا أنه كان يقترض من رفاقه... كان له سحر لايقاوم... جذاباً كان... وفرض حضوره المتميز هيمنته على صحبه فما كان بوسعهم أن يردوا له طلباً... ما قابلت في حياتي شخصاً يصعب رفض طلبه قرضاً «توم». وأصبح له من جرائ ذلك دخل ثابت تدره الاستدانة عليه... ولم يجد صعوبة في اتخام رصيده من الصداقات بمزيد من الرفاق كل يوم... قلت إن سحره لايقاوم، وكان يردد بغباء دائماً بأن المال الذي ينفق على ضروريات الحياة كان مملاً ممجوجاً، وبأن خير النشب هو ما أنفق على الكماليات وتمتع الحياة! وكان يلجأ إلى أخيه «جورج» فيما يتعلق بالأمر الثاني. وكم من مرة وقع المسكين في شرك عذب حديث «توم» وما قطعه من عهود ومواثيق كاذبة في أنه ما تقدم بطلب مال منه إلا لكي يبدأ من جديد فيدشن مشروعاً ينطلق منه لتأمين لقمة عيشه على أنه خصص تلك المبالغ الكبيرة التي منحه إياها لشراء سيارة وحلي ثمينة. وعندما أيقن «جورج» بالأ فائدة ترجى منه غسل يديه منه، على أن «توم» شرع في ابتزازه بامتهان حِرْفٍ لاتليق بمقام عائلتهم واعدأ بتركها إما أغناه بالمال عنها... فظل يدفع له منه ماشاء..

وأوشك «توم» مرة على دخول السجن فكاد «جورج» يفقد صوابه... وشعر بأن شقيقه قد تجاوز حدود المعقول رغم أنه كان على يقين من أنه لم يكن ليتجاوز الخط... الفاصل بين المباح والمحرم قانوناً؛ بين الممنوع والمرخص به، ولذا فقد

تنامى غضبه وتناذرت دهشته عليه حينما سمع بأنه قد احتال على أحدهم وأن الضحية قد رفع عليه دعوى قد تجعله رهين القضبان أمداً. «لن أسمح لهذا الـ«كرنشو» بأن يدفع بأخي إلى السجن!» - قال المسكين مناجياً نفسه قبل أن يهب من فوره فيصلح ذات البين ويرأب الصدع بخمسائة جنيه دفعها للمتضرر عدداً ونقداً. لم أر في حياتي (جورج) غاضباً كما رأيته حين علم بأن (توم) و(كرنشو) قد اتجها إلى «مونت كارلو» فور تسلّم المال حيث أمضيا على شواطئها الخلافة شهراً كاملاً.

وعلى امتداد عشرين عاماً ظل «توم» يُبحرُ في محيطات السعادة والشهرة يصاحب الحسان، ويرتدي أفخم الأزياء، ويتناول طعامه في أرقى المطاعم وأغلاها... كان من يراه يخاله ابن ست وثلاثين رغم تجاوزه الرابعة والثلاثين. كان طيب المعشر ودوداً لبقاً تنعم النظر إليه فيجذبك... تشدك صحبته رغم أنك تعلم علم اليقين أنه لا يملك شروى نقيير! أما ما أفسح له في الأفتدة مكان الصدارة فكانت جراته المذهلة، وروحه المعنوية العالية... مرحاً كان دوماً سعيداً ينضح بالبشر محياه... ويشع منه ذلك السحر الغامض الرهيب، ما أحسست يوماً بثقل احتياجاته وطلباته الدائمة... وتلك الإتاوات التي كان يفرضها بانتظام عليّ فاستجيب لها باسماً راضياً حتى لكانما كان يعطيني الذي هو طالبه!.

ما أقرضته خمسين جنيهاً يوماً دون أن يعتريني شعور بأنني المستدين!

كان «توم رمزي» معروفاً لدى الجميع... ولم يكن بوسعك أن تستحسن سيرته ولا أن تمنع نفسك من الوقوع في شرك حسن صحبته وجميل معشره في الوقت ذاته.

ورغم أن - الفقير إلى الله - «جورج» لم يكن يكبر أخاه المشؤوم بأكثر من عام فقد كان يبدو كشيخ في الستين وعلى امتداد ربع قرن ما تمتع بأكثر من أسبوعيّ إجازة في السنة. تراه في مكتبه منذ التاسعة والنصف فإذا هو ملازم له لا يفارقه قبل السادسة مساءً وكان أميناً مجدداً لا تتردد في الاعتماد عليه إما دعت الحاجة، أما زوجته الطيبة فكان مخلصاً لها في السر والعلن وما فاقه أحد في

المثالية والأبوة الحانية تجاه بناته الأربع يتفیان في دوح محبته ورقته وحنانه وارف الظلال.

وكان قد عزم على أدخار ثلث دخله كيما يتقاعد في الخامسة والخمسين فيقطن بيتاً في أقاصى الريف... ويظل يزرع حديقته الصغيرة ويلعب «الجولف» تلك كانت أقصى أمانيه... بريئة كانت حياته براءة الأطفال... نقية لا يكدر صفوها مكر أو تجترحها جريرة تستوجب الندم... وكان سعيداً بتقدمه في السن إذ إن «توم» كان يتقدم فيه كذلك ومقشدة العمر لاتبقي على أحد من الناس أو تذر. وفرك «جورج» راحتيه ثم قال لي:

لقد كانت سفينة حياة أخي تبخر في اليم حينما كان شاباً وسيماً لكنه أصغر مني بسنة واحدة، وسيصبح عمره بعد أربع سنوات خمسين عاماً عندها لن تكون الحياة سهلة ميسرة بالنسبة له... أما أنا فسيكون لدي - حينما أشارك على الخمسين - ثلاثين ألف جنيه. لقد ظللت أردد طوال ربع قرن من الزمان أن الأمر سينتهي بـ«توم» إلى «الدرك الأسفل»... ولسوف نرى ما يكون من شأنه آنذاك سيتعلم «توم» ساعتها أي منقلب سينقلب وما إذا كانت حياة الدعة والراحة خيراً من الجد والعمل!

يا لك من مسكين يا «جورج» قلت متعاطفاً معه في قرارة ذاتي وظللت أسائل نفسي - جالساً بمحاذاة - عما فعله «توم» الآن إذ إنه بدا جلياً أن «جورج» كان في قمة الغضب! ترى ماذا اجترح ذلك الشقي ليثير حفيظة أخيه إلى هذا الحد؟ سألت نفسي وإشفاقي على الشقيق الأكبر بتناذر خفي على الأصغر.

- أتعلم ما الذي حدث الآن؟ سألني «جورج» وكنت أتوقع الأسوأ متسائلاً عما إذا كان «توم» قد وقع أخيراً في قبضة العدالة. وبدا جلياً أن الاضطراب كان يبعثر الكلمات على شفتيه:

- ليس بوسعك أن تنكر جدي وإجتهادي وحرصني على إعطاء العمل ما يستحقه من الاهتمام و التفاني - كنت أميناً مخلصاً... صريحاً... نزيهاً... وبعد

حقبة من العطاء المثمر والاقتصاد في الإنفاق كنت أعتزم التقاعد على دخل
يكفيني وعائلي... ذلك ما خططت له... أما أديت واجبي خير أداء؟
- أجل! أجبته.

- وليس بوسع المرء كذلك أن ينكر أن «توم» كان عابثاً لاهياً طوال حياته...
أنه كان وغداً لا ينطوي سجل سيرته إلا على صفحات من الخزي... وأن أفضل
مكان له ليس سوى السجن يقوم فيه ما اعوجّ. ألسنت محقاً؟.

- بلى... ما تجاوزت الحقيقة. أجبته متعاطفاً... على أن وجهه احمرّ فجأةً
وهو يقول مستطرداً:

- لقد ارتبط قبل عدة اسابيع بسيدة تكبره بما يخولها لأن تكون له أمّاً! ولقد
توفيت الآن تاركَةً له كل ما تملك! نصف مليون جنيه ويخت وبيت في لندن،
إضافة إلى آخر في الريف!

وضرب «جورج رمزي» المنضدة بقبضته فجأةً:

- هذا ليس عدلاً! ليس عدلاً أقول لك... تباً له!

وما تماكنت نفسي... غرقت في نوبة عميقة من الضحك وأنا أتأمل وجه
«جورج» الغاضب... وتأرجح الكرسي حتى كدت أقع أرضاً! ولم يسامحني
«جورج» على ذلك أبداً أما «توم» فكان كثيراً ما يدعوني إلى ولائم فخمة في
منزله الراقي بحي «مي فير» وإذا كان يستدين مني بعض المبالغ التافهة أحياناً
فما مرد ذلك لسوى جبروت العادة... وعلى أي حال فإن ما كان يقترضه مني -
بين الفينة والفينة - لم يكن يتجاوز جنيهاً إنجليزياً ملكياً واحداً.

